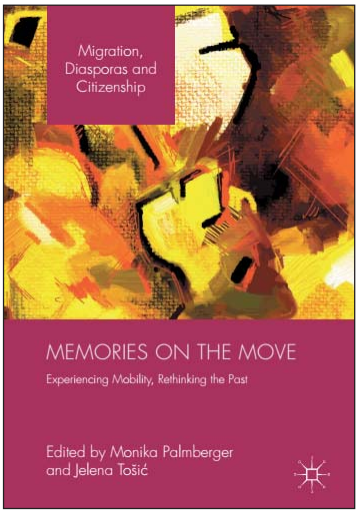

Monika Palmberger and Jelena Tošić (eds.,).- *Memories on the Move: Experiencing Mobility, Rethinking the Past* (Basingstoke UK: Palgrave Macmillan, 2016), 312p.

"تتشابك الحركة والذاكرة بشكل وثيق، فترتبط الذكريات بالأماكن وتحفظ أشكالا جديدة من العلاقات الاجتماعية وتؤسسها." بهذه العبارات استهلت مونيكا بالمبرگير (Monika Palmberger)، ويولينا توشيک (Jelena Tošić)، من جامعتي ڤيينا ولوڤان البلجيكية، تقديم هذا الكتاب، وهما اللتان أشرفتا على تنسيق مواده. ويعتبر الكتاب في الأصل عصارة لنقاش مستفيض استضافته ورشة عمل تحت عنوان: "التاريخ الإشكالي، إعادة التفكير في ذاكرة التنقل/الحركة،" وذلک في إطار مؤتمر عقدته الجمعية الأوروبية لعلماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية سنة 2014 بمدينة تالين في إستونيا. ثم صدر ضمن سلسلة "هجرة، شتات، ومواطنة" عن دار بالگريڤ للنشر الربطانية سنة 2016.

ويمثل هذا الكتاب ثمرة لمجهود بذلته مجموعة من الباحثين استهدف منه إظهار درجات التفاعل بين الذاكرة والتنقل من مكان إلى آخر بشتى صوره. ونعني بذلک، الهجرات الدولية والشتات والنفي والتهجير القسري لأسباب إيديولوجية والحركات التاريخية وظهور مخيمات اللاجئين وبناء المواطنة العابرة للقوميات ومواطنة الحدود.

ويتكون الكتاب من أحد عشر دراسة موزعة على ثلاث أبواب اجتهد أصحابها في إبراز العلاقة بين التنقل أو الحركة في المجال وبين الذاكرة سواء المجروحة منها أو المنفية أو المستبعدة أو الانتقائية، حيث يتم استدعاء الذاكرة للهروب من وجع الحاضر وقساوته، وأيضا لتجاوز مآسي الماضي ودوافع الهجرة والتهجير؛ ولهذا يأخذ الماضي مساحة مهمة في عملية التشبث بالهوية وبناء علاقة جديدة مع المجالات المستقبِلة. وبوجه عام، فقد ركزت مواد هذه الدراسات على استقصاء حركية الأشخاص والأشياء والمواقع والبراديغمات الناتجة عن التحول في العلاقات المستحدثة مع الفضاءات الحديثة بغية تحليلها وفهم آلياتها المعقد والمتشابكة.

يعتمد نهج الكتاب تحليلا اثنوغرافيا ملموسا لعمل الذاكرة في مناطق مختلفة من العالم، مثل البوسنة والهرسك ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين، والمهاجرات من الأورگواي نحو إسبانيا. وبعض سكان البنغال نحو البرتغال..، ليقدم للقارئ طروحات نظرية حول كيفية تشكل أنواع الذاكرات والذكريات في حركيتها المكانية والزمانية، دون إغفال قضايا التنقل أو الحركة. ثم تتعاقب في فصول الكتاب تباعا صور متشابكة ومتفاعلة عن الهجرة القسرية والنفي والمواطنة العابرة للحدود. وبناء عليه، فإننا أمام عمل يستقطب في الوقت ذاته اهتمامات مشتركة بين علماء الأنثروبولوجيا وعلماء الاجتماع والمؤرخين وعلماء السياسية وجميع المنشغلين بقضايا الديناميات المعاصرة للذاكرة والهوية والحركية داخل المجال بسياقاتها المختلفة، بغية التوصل إلى فهم دينامية الهجرة الدولية وخصائصها، واستيعاب درجات استمرار التعلق الوجداني للمهاجرين بمجالات الانطلاق وبحالات التسوية والاندماج في مناطق التوافد والاستقرار، وهو ما تحيل عليه كلمة المواطنة. وهذا فضلا عن محاولة فهم مختلف أصناف الذاكرات التي يمكن أن نسميها ذاكرات متحركة وعصية على النسيان والتجاوز. ومن ثمة، فإن مقاربة الموضوع قد استدعت توظيف عُدّة منهجية تتداخل فيها تخصصات معرفية متعددة، مع الحرص على الانخراط في التفكير الجماعي الرامي إلى صياغة براديگم معرفي يجمع بين التنقل والذاكرة، باعتبارها إحدى تجليات هويات الشعوب الضرورية لإقامة تصالح مع التاريخ العسكري والسياسي، كما هو الحال مثلا في وضعية يهود بولونيا ما بعد الشيوعية. وكان من اللازم أيضا، عدم إغفال توظيف الوسائل السمعية البصرية لتوثيق أعمال الإبادة الجماعية التي تعرض لها شعب كردستان العراق.

وإذا كان النقاش اليوم منصبا حول دور الذاكرة في كتابة التاريخ وإعادة كتابته، وفي التصالح مع الماضي، حيث ركزت كثير من الدراسات على استكشاف الذاكرة، والتشديد على ارتباطها بأماكن معينة مثل النصب التذكارية أو الأعمال الفنية التي تشكل نقاطا مرجعية للسرد الوطني (موريس هالفاكس وبيير نورا وبُّول ريكور)، فإن دراسات كثيرة أخرى قد اهتمت من جانب آخر بالبحث في موضوع الهجرة والحركة في المجال بشكل منفصل عن الذاكرة. غير أن مواد هذا الكتاب نجحت في الجمع بينهما، بحكم الاهتمام بتحليل كيفية تأثير إحداهما في الأخرى، مما جعلها تشكل إحدى حلقات النقاش الأكاديمي لما يعيشه عالم اليوم من أوضاع مأساوية وقضايا متجددة، أنتجت

ظاهرة الهجرات المتعددة عبر الثقافات والقارات. كما أثرت الدولة الوطنية على حركية الهجرة وتمثلات الماضي،و لهذا يمكن طرح الأسئلة التالية:

ما تأثير أنماط التنقل المختلفة على ممارسات الذاكرة؟ كيف يمكن أن تسهم في ظهور أشكال جديدة من التذكر؟ متى تصبح الذاكرة موردا للتاريخ ومتى تصبح عبئا عليه؟ كيف يمكن للتنقل أن يفضي إلى تقوية الذاكرات الوطنية المهيمنة؟ ما طرق استخدام الذاكرة لإعادة بناء وتكوين علاقات جديدة عبر وطنية أو عابرة للقوميات والهويات؟

أسئلة من هذا القبيل وغيرها كثير طرحها المساهمون في ثنايا هذا العمل الذي نتلمس الإجابة عنها في منعطفات الدراسات التي تناولت موضوع الذاكرة والتنقل، بالدرس والتحليل من خلال المحاور التالية: المواقع وربطها بذكريات الحرب والمنفى عبر الزمان والمكان؛ مخيم اللاجئين كوسيط بين الذاكرة والمنفى الطويل الأمد؛ مواقع مضطربة للذكريات، بيوت العائلة للأسر العابرة للحدود؛ صناعة الأفلام وإحياء ذكرى أعمال الإبادة الجماعية في كردستان؛ الذاكرة في الحركة: الصور في الحقائب؛ استرجاع الحلم غير المحقق للحياة اليهودية في بولندا الشيوعية ما بعد الحرب؛ الرُّحل والنُّوستالجيا في المجر؛ ماضي مؤلم الذاكرة السياسية والعابرة القوميات بين بنغلاديش والبرتغال؛ تنقل الذاكرات وذاكرات تنقل بعض الأفكار.

إذا كانت وظيفة الذاكرة وظيفة شعورية مرتبطة بالحاضر فإنها توظف الماضي من أجل الحاضر والمستقبل أيضا، وبذلك يظهر أن الماضي والحاضر يضيء كلاهما الآخر بتعبير فرناند بروديل. وقد أظهرت الدراسات أن فعل التذكر أو ذكرى التنقل هي وسيلة أساسية تمكن الإنسان من فهم حياته والعمل على تطويرها عبر مجموعة من الأشياء والرموز والمواقع، فتمت الإجابة عن تساؤلات كيف ومتى ووفق أي وسائل يتذكر الإنسان وتبعا لأي سياقات؟ لهذا يدعو الكتاب إلى تجاوز المواقف الاحتفالية والتحليل المبسط لفعل التنقل وانتقاد الذاكرة، بهدف تجاوز ثنائيات الحركة والاستقرار واكتشاف الطرق التي يمكن من يسهم الاستقرار من خلالها في فهم أنظمة التنقل المعاصرة واستيعاب براديگم الحراك الجديد، وأيضا لفهم وثيرة الاستمرار والاستقرار والقطيعة في فترات الحياة، واكتشاف السبل المختلفة التي يكون فيها الفضاء حالة ونتاجا وذاكرة في الآن نفسه.

اعتمد المساهمون في هذا العمل، على نظريات شتى وفق مقاربات وتخصصات مختلفة، كالمنهجين الاثنوغرافي والأنثروبولوجي والممارسة الاجتماعية والأبحاث الميدانية مثل ما قامت به الباحثة في الأنثروبولوجيا ساندا يولين (Üllen Sanda)، عند استقصاءها لتجربة نازحين بوسنيين إلى الدانمارك لفهم العلاقة بين "منزل العائلة" باعتباره موقعا للذاكرة، ودوره في الهوية الوطنية والذاكرة الجماعية، وبين مجال الاستقبال، لتخلص إلى أن الأمر يختلف من جيل إلى آخر، وأن هناك تغيرا على مستوى المواطنة والذاكرة. وسارت أنيكا ليمس (Annika Lems) على النهج نفسه حين تعاملت في دراستها مع شخصين صوماليين غادرا البلاد صوب أستراليا منذ تسعينات القرن الماضي، لتوضح دور الصورة في تنشيط الذاكرة. فإذا كانت الصور التي التقطها محمد خلال زيارته لموقاديشو سنة 2011، تُظهر مدينة مدمرة وعلامات الحرب بادية في كل مكان، فقد لاحت لحظات بزغ فيها الماضي بقوة ليتجاوز الحاضر، ويتحول المشهد المدمر إلى شيء جميل. كان الماضي حاضرًا لدرجة أنه بدا وكأن المستجوب يتحرك داخل الصور، حيث خرج عن إطارها وشرع في إعادة ترتيب المكان وفق ذاكرته، فيصبح الماضي "هناك" مرتبطا بالحاضر "هنا"، وبذلك اختفت الحدود. ربما تكون المعالم التي تم تصويرها قد دمرت، ولكن ماضيها يأبى الأفول، وهو ما يبين تفاعل الذاكرة والذات والمكان. أي أن الماضي لا يظهر ككائن متماسك، ولكنه مثل طائر الفينق، الأمر الذي يدعونا إلى إعادة التفكير في الذاكرة بوسائل تحليلية عميقة مثل التاريخ والزمن.

وأجرت كاميلا دابروفسكا (Kamila Dąbrowska) مقابلات مع أشخاص من بولونيا لاستنطاق ذاكرتهم الفردية والجماعية المجروحة، كما أنجزت بحثا أنثروبولوجيا عن "التذكر الجماعي،" واعتبرت الذاكرة والوعي بالماضي عناصر حاسمة في بناء الهوية الفردية والجماعية على السواء. وناقشت أيضا استمرار أسطورة التهديد اليهودي في الخطاب الوطني البولوني، وكيف تمت إعادة اختراعها في السنوات العشرين التي تلت الحرب، وما ترتب عنه من تعطيل إعادة بناء المجتمع اليهودي في بولونيا عبر استدعاء الماضي في الفضاءات المتكسرة المثقلة بالأعباء، فأصوات الماضي تشكل السرد الجماعي للحياة اليهودية بعد الحرب في بولونيا.

وهو ما يوضح كيف خضعت بولونيا لعملية بناء مكثف للذاكرة، حيث أعيدت قصص حياة جيل اليهود البولونيين بعد الحرب إلى الوعي التاريخي العام. ومع ذلك، أثبتت صورة اليهود المهددة للآخرين على أنها شديدة المقاومة، لكنها أخفقت في إعادة

بناء الحياة اليهودية في بولونيا الشيوعية ما بعد الحرب، مما يوضح معاناة المنطقة من فقدان الذاكرة الاجتماعية حسب الباحثة.

وتضع الأعمال التي يضمها هذا المجموع، فعل الذاكرة الفردية والجماعية في دائرة الاهتمام وتخضعها للدرس والتحليل، حيث ترصد ذاكرة النزوح والبحث عن هويات قابلة للتعايش بعد الحرب العالمية، وبعد النكبة الفلسطينية، وبعد الحرب اليوغوسلافية والإبادة الكردية. لكن ظهر الاختلاف بين الأجيال في كيفية التعامل مع تجارب الحرب والهجرة القسرية وتجديد الخبرة الاجتماعية في سياق سياسي بعيد عن سنوات الحرب، كما شكل السكوت عن العنف العرقي شكلا من أشكال احتواء الذاكرة كاستراتيجية مسؤولة أخلاقيا وسياسيا عن بناء مجتمع متعدد الأعراق. ولعب النسيان وفعل الذاكرة دورا مزدوجا، على مستوى تخطي ماضي الحرب والنزوح، وفي الوقت نفسه من حيث تعزيز الرغبة في العودة إلى الوطن الأصلي، وإعادة بناء حياة جديدة بعد المنفى. لقد تم اعتماد الصمت والنسيان كاستراتيجية لتجاوز التحركات المؤلمة أو لتجسير خبرات متنافرة من أجل بناء حياة جديدة، فضلا عن الإسهام في تشكيل هويات غير أصيلة. لكن توجه جيل ما بعد المنفى، نحو العالمية أكثر من الوطنية؛ مما عقد محاولة استعمال الذاكرة وتوظيف المفاهيم الجديدة للمواطنة التي أصبحت تتجلى في وجدان المهاجر أو النازح بواسطة الأشياء والطعام والموسيقى واللغة. إن مثل هذه الأمور تحفز الذاكرة وتعزز الشعور بالاستمرارية والترابط بين البلدين، (البلد الأصلي وبلد الاستقرار) كما يمكنها من تمرير الذاكرة والتاريخ بين الأجيال وعبرهم.

لكن الأمر يختلف في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين التي تحفل بذاكرات ومفاهيم مشتركة ساهمت في تشكيل "مجتمع المخيم،" حيث يقع تمرير ذكريات النكبة الفلسطينية إلى الأجيال الشابة. وبناء عليه، أصبح المخيم صلة رمزية مهمة بين جغرافيتي المنشأ والمنفى، ورفض فكرة الاندماج والتكيف مع المنفى على حساب حق العودة، ومن تم يصبح المخيم موقع تذكرٍ وإعادة إنتاج ماضي ما قبل النكبة.

ويظهر نموذج آخر للعلاقة بين الذاكرة والتنقل، ويتمثل في النساء المهاجرات العاملات بإسبانيا اللائي يحملن صور عائلية في حقيبة السفر خلال رحلتهن الأولى، فيظهر دور الصور الفوتوغرافية في الحفاظ على ذاكرتهن الفردية والجماعية في عوالم الهجرة. حيث يتجلى التفاعل العاطفي مع الصور وقدرتها على تحفيز الذاكرة و ومحاولة استحضار حميمية تذكر الأفراد والأماكن. لقد تشكل جزءا من الذاكرة وتساعد على

إعطاء معنى للذكريات. إذ تقوم بمهمة الربط بين الماضي والحاضر والمستقبل، فيبرز دورها أيضا في المساعدة على التذكر بالإضافة إلى إمكانية إنشاء روابط عاطفية اتجاه أماكن الاستقبال. وهنا لا تُشكل الحركة في المكان حاجزا أمام الذاكرة التي تمتد إلى ما وراء الحدود الوطنية، وبذلك تسهم الهجرة في تشغيل الذاكرة وتسلط الضوء على عناصرها المخزنة منذ فترة طويلة، وتمثل الصور عناصر مُساهمة في الحكي العائلي لإبرازها جوانب من الحياة الشخصية للمهاجرات.

وعموما، تضطلع الصور العائلية خلال عمليتي التنقل والهجرة بدور مزدوج، إذ تمثل نظرة نحو الماضي وإلى ما خلفته المهاجرات وراءهن، وهي في الآن نفسه، دافع قوي للتركيز على ما هو آت. وهذا يعني أن العواطف تتشابك عبر تفاعل ثنائية الغياب والحضور في الفضاءات العابرة للحدود.

من جانب آخر، وحفاظا على الذاكرة الجماعية، يواجه شعب كردستان العراق تحديات الحصول على الاعتراف الدولي بالإبادة التي تعرض لها لمدة 25 سنة، والتحدي الثاني هو إحياء ذكرى الأجيال السابقة داخل مجتمع ما بعد الإبادة. ولهذا انصبت جهود الأجيال الحالية التي عاشت أغلبها في الشتات، على صياغة الذاكرة وصونها، وتحقيق الهدف المشترك المتمثل في كتابة التاريخ الوطني، فاعتمد هؤلاء على الأفلام الوثائقية لتوثيق ونقل بوح الشهود لبناء معرفة وطنية، ولمعالجة المواضيع الحساسة وفتح المساحات الاستطلاعية العابرة للحدود.

ومن المعلوم أن العمل الفني يتيح مساحة لتوظيف الذاكرة من خلال شهادات الناجين، وهو مرجع ذاكري مهم في العوالم الوطنية وعبر الوطنية. ويمكن أن يساعد على تجاوز العقبات (الوطنية/العرقية)، ويسمح بمناقشة القضايا الشائكة، كما يمكن من تقديم الناجين وإسماع صوتهم وتعزيز مشاركتهم وحضورهم على المستوى الدولي، مما يشجع على فتح النقاش عالميا. وقد تسمح الذاكرة السينمائية المصورة للجيل الحالي بمعرفة قضيته، وإيجاد طرق لمعالجتها ودمج الأصوات الناقدة أو الصامتة، مع تدوين روايات الناجين، رغم ما يعتري هذه العملية من صعوبات. ولهذا وجب التعامل مع هذه الشهادات بطرق أكاديمية، بغية دمجها في المعرفة العامة، مما يتطلب صياغة مصطلحات باللغة الأصلية. بيد أن الاهتمام بدراسات الذاكرة في السنوات الأخيرة قد منح اهتماما متزايدا لانتقالها عبر الأجيال والتحقق من عملية النقل، مما أسهم في فتح مسارات جديدة للتعامل مع الماضي المؤلم.

صحيح أن الفيلم الكردي كان منذ البداية تعبيراً عن المنفى والشتات والحراك والهجرة، لكنه أصبح ملهما للمواطن الكردي مما يعزز عمل الذاكرة، حسب ماجاء في دراسة ماريا سيكس-هوهنبالكن (Maria Six-Hohenbalken). لكن الأمر لا يخلو من عراقيل، ومنها عدم وجود أطر مؤسساتية (وطنية) تسهر على العمليات التَّذكُّرية، وغياب أرشيف لشهادات الناجين، مما انعكس حقا على تشكيل الذاكرة الجماعية والتأريخ الوطني.

ويتفق علماء الأنثروبولوجيا على أن التاريخ والذاكرة والهويات الوطنية موضع نزاع وتفاوض ونقاش، حيث تشير النصب التذكارية وتاريخ الاستهلاك الجماعي إلى مواضيع الهوية الوطنية والتذكر والماضي، وهي مطروحة ضمن أجندات سياسية أمام عالم اليوم. كما أظهرت الدراسات التوظيف السياسي للمهاجرين وماضيهم المؤلم، سواء في مناطق النزوح أو الاستقرار، ومثال ذلك ما أورده جوزي مابريول مابريل (José Mapril) حول المهاجرين البنغال نحو البرتغال في السنوات الأخيرة، حيث أصبح نشاطهم السياسي العابر للحدود ملحوظا. وتتجلى عملية التَّذكُّر واسترجاع الذكريات، في أشكال "مجتمعية،" من قبيل الاحتفال بالأحداث الكبرى، حيث تسمح بفهم الطريقة التي ترتبط بها مفاهيم الماضي برسم سياسات المهاجرين. ومن ناحية أخرى، يركز على أهمية الذاكرة في النقاشات المرتبطة بتشكيل سياسات الهجرة في المجتمعات المستقبِلة.

ويطرح هذا المجموع فكرا نظريا وميدانيا حول معادلة الحركة والذاكرة، لإبراز التأثير والتأثر ورصد منعطفات تغير مفاهيم المواطنة والدولة القومية وبيت العائلة بظهور مفاهيم المواطنة العالمية أو العابرة للحدود الوطنية، فهو يدعو إلى إعادة النظر والتفكير في مجموعة من الإشكالات المرتبطة بالذاكرة والتاريخ والزمن وبالحركة في المجال، ويحفز على الاشتغال الجماعي ضمن مجموعات بحث متعددة المشارب والتخصصات داخل أروقة الجامعات ومراكز بحثية من أجل إيجاد أجوبة للقضايا المرتبطة بالمفاهيم الاستشكالية سابقة الذكر.

محمد مزيان
جامعة ابن طفيل، القنيطرة